الحكاية الأمازيغية: الشفهية

والتدوين والترجمة

سليمة الكولالي

المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية– الرباط

تزخر الثقافة المغربية بموروث مادي وغير مادي مهمين أضحيا مركز اهتمام العديد من الباحثين، كما يَعرف هذا الموروث تعددا هوياتيا، حيث نجد الهوية الأمازيغية والعربية والعبرية، ساهم في إشعاع الثقافة المغربية سواء على المستوى الوطني أو العالمي.

تعتبر الشفهية البذرة الأولى لميلاد الكتابة، وقد ارتبطت بمختلف الميادين، وعُرفت في جميع مراحل المجتمع الإنساني باعتبارها أداة للتواصل والانفتاح على الآخر. والحكاية الشعبية عنصر أساسي ضمن هذه الشفهية. وقبل أن ننتقل للحديث عن الحكاية الشعبية الأمازيغية، وانتقالها من الشفهية إلى التدوين، لابد أن نتوقف عند هاتين العمليتين الحيويتين اللتين مرت بهما جميع الآداب العالمية، وليس الأدب الأمازيغي فقط، لنرى مميزات كل منهما.

أولا: الشفهية والتدوين : لعبت الشفهية دورا هاما عبر التاريخ، فبفضلها تواصلت الشعوب، وبرزت أجناس أدبية عديدة كالشعر والأمثال والحكايات والألغاز والملاحم التي ظهرت في العصر الجليدي الأول، بالإضافة إلى ملاحم قديمة من النوع الأركادي والأيولي (1).

ارتبطت الشفهية بكل ما له علاقة بالأدب، أو بالأحرى بكل ما له علاقة بالإنسان وبيئته، في حين كانت الكتابة وسيلة لتدوين الكتب المقدسة، وكمثال على ذلك، نذكر الأسفار الخمس للنبي موسى والتي كتبت على الجدران قبل أن تدون على أوراق البَردي وجلود الأغنام.

إذا ما تأملنا أسبقية الشفهية على الكتابة، سنجد أن المجتمعات التي كانت تعتمد على الشفهية للتعبير عن وجدانها وأفكارها، لم تكن تعرف القراءة والكتابة، لأنهما ارتبطتا بالطبقة الميسورة، حيث يحتم عليها موقعها الاجتماعي أن تكون على دراية بهذين المكتسبين، في حين

ارتبطت الشفهية بالطبقة البسيطة أو التي تجهل الكتابة والقراءة، وهكذا اتخذت الكتابة طابعا نخبويا، في حين اتخذ الشفاهي صيغة جماعية (2).

لكن رغم ظهور الكتابة وسموها إلا أن التواصل الشفاهي لا يزال سائدا، فالإنسان بطبعه يعتمد على ذاكرته التي تعتبر خزانا للمعرفة ولكل ما هو شفوي بالخصوص.

يمكننا الجزم أن الثورة الفكرية التي عرفتها البشرية سمحت بأن تتبوأ الكتابة مكانة مهمة على حساب الشفهية، خصوصا بعد ظهور المطبعة سنة 1431، لتحمي الموروث الثقافي من الضياع والاندثار مع انصرام الزمن.

ظهرت الكتابة والآداب لأول مرة في القارة الإفريقية في القرن الثاني عشر في أثيوبيا (3). وجدير بالذكر أن الشفهية كانت تستحوذ على الجانب الثقافي بالقارة الإفريقية، وبالموازاة مع ذلك، كانت هناك مخطوطات يبلغ عددها 3.500.000 مخطوطا، في كل من المغرب وشمال- شرق إفريقيا، وإفريقيا الشرقية، وغرب إفريقيا بالصحراء وبمدغشقر، إلا أن الإتنولوجيين كانوا يولون اهتماما لكل ما هو شفاهي على حساب هذه المخطوطات (4).

لقد كان هناك افتتاح منذ الإغريق باللغة في صورتها الشفاهية، من خلال عنايتهم بتطوير فن البلاغة التي كانت تعني الكلام أمام الناس، فوضعوا للخطابة قواعد نظمت مبادئها ومكوناتها، وأتم أفلاطون الكتابة بأنها غير إنسانية، وذهب سقراط إلى أنها تدمر الذاكرة، وأن أولئك الذين يستخدمونها سوف يصبحون كثيري النسيان، يعتمدون على مصدر خارجي لما يفتقدونه في المصدر الداخلي (5).

ثانيا: تدوين الحكاية الأمازيغية : ترتبط الحكاية بما هو رمزي لضروب المعيش اليومي، ورغم طابعها الشفوي فهي من الأشكال التعبيرية الأكثر بروزا، تساهم في تدعيم وعي الجماعة بذاتها، والتأكيد على مشروعها الحضاري.

ذكر الأستاذ محمد شفيق في كتابه "لمحة عن ثلاثة وثلاثين قرنا من تاريخ الأمازيغيين" أن حكاية أمازيغية تسمى "الأسد الحقود" كانت تحكى في عهد يوبا الثاني الملك الفيلسوف الأمازيغي، وقد ذكرها في مجلداته الثلاث المسماة "ليبيكا"، ولا زالت جداتنا يحكينها إلى اليوم(6).

لعب المستمزغون الفرنسيون والإسبان والألمان دورا مهما في تدوين الثقافة الأمازيغية خلال فترة الاستعمار، فبفضلهم عرفت الحكايات الأمازيغية، التي جمعوها ودونوها خلال أسفارهم وتنقلاتهم الميدانية.

كتبوا بالحروف اللاتينية التي تطابق الأصوات الأمازيغية، وعدلوا الحروف اللاتينية التي لا تتطابق صوتيا مع الأصوات الأمازيغية لتكون مناسبة، وأحيانا احتفظوا بحروف عربية مثل العين والحاء.(7) إلا أن البعض منهم لم يول اهتماما بنشر النص الأصلي بلغته الأمازيغية وإنما اكتفى بترجمته.

ونشيد هنا بالجهود التي قام بها كل من رينيه باسيه René Basset وهنري باسيه Basset Henri في النصف الثاني من القرن 19، في جمع ودراسة الحكايات الأمازيغية، أو ما قامت به بوليت غالون بيرني P.Galand Pernet من دراسة تقنية للحكاية الأمازيغية، كما قام المستمزغ الفرنسي إميل لاووست Emile Laoust، بوضع كتابين للحكاية الأمازيغية: في أولهما دون مجموعة من النصوص الحكائية الأمازيغية بلغتها وبالحرف اللاتيني، وفي الثاني ترجم تلك النصوص إلى اللغة الفرنسية، ومثله فعل الكثيرون.(8)

بالإضافة إلى مجموعة مهمة من الحكايات بتشلحيت جمعها هانس ستامHans Stumme، عنونها: Marchen der Schluh von Tázerwalt ، وقد دونها سنة 1895، ولم يكن بوسع الباحثين الاطلاع عليه لأن خطه غير واضح، كما أن ترجمته إلى الألمانية كانت معقدة. لقد أهمل الأمازيغ هذه المجموعة الحكائية، إلا أن هذا الكتاب سيكتب بخط واضح وسيترجم إلى الإنجليزية مرفوقا بالنص الأصلي الأمازيغي (9).

ولا ننسى أيضا دراسات أخرى كدراسة دي نوغريب Du Noghreb تحت عنوان "حكايات شعبية أمازيغية جديدة، 1897، وما جمعه لوغيل الفونس Leguil Alphonse من حكايات بربرية في الأطلس الكبير، وما قام به كذلك رو آرسين Roux Arsène ، وذلك حينما جمع حكايات تشلحيت...وقد سبق للمستمزغين الغربيين أن اهتموا بالحكاية الأمازيغية الريفية، كما هو الشأن عند المستمزغ الألماني أوي طوبر Uwe Topper في كتابه: الحكايات الشعبية البربرية، وقد ترجمه إلى

الإسبانية جولي خيسوس ري Joley — Jesus Rey وترجمه بعد ذلك إلى اللغة العربية الباحث المغربي موسى أغربي تحت عنوان: حكايات البربر الشعبية (10).

بالإضافة إلى المستمزغين السابقين، نذكر هودسون W.Hodgson الذي جمع الحكايات الشعبية بمنطقة القبائل منذ بداية القرن التاسع عشر، حيث نقلها من الموروث الشفوي الأمازيغي إلى الكتابة اللاتينية، وقد خصص القس ريفيير le père Rivière، ثلاثة دفاتر للحكايات الشعبية الأمازيغية بمنطقة القبائل بجورجورة سنة 1882، مع ترجمتها ترجمة جزئية (11).

وقام أيضا لوبلان دو بريبوا Le blanc de Prébois بنشر مجموعة منها سنة 1897 مرفقة بترجمة لها. بيد أن أهم عمل في هذا المجال ما قام به أوجوست موليراسAuguste Moulièras، وذلك حينما نشر ما بين 1893 و1897 مجلدين من نصوص القبائل، وذلك تحت عنوان: "الخرافات والحكايات العجيبة للقبائل الكبرى légendes et contes merveilleux de la Grande Kabylie كما نُشرت مجموعة من الحكايات الشعبية الأمازيغية بالجزائر منذ سنة 1945، وذلك في ملف الوثائق البربرية للجبهة الوطنية، الذي كان يشرف عليه القس دالي le père Dallet . وهناك أعمال أخرى مشهودة في هذا المجال للباحثين الجزائريين كبلعيد آيت علي، وبلقاسم بن سيديرا، ومولود معمري، وبوليفة...(12).

بعض الباحثين من أبناء الأمازيغ وضعوا بيبلوغرافيا وافية لهذه الأعمال مثل ما قام به الباحث الجزائري (عمارة بوكشيش) عندما وضع : Langues et littératures berbères des origines à nos jours bibliographie internationale، وهو مؤلف يدرج كل الأعمال التي قام بها الباحثون حول الأدب واللغة الأمازيغيتين، ومن ضمن ذلك الحكاية.

وثمة مجموعة من الكتب والدراسات والأبحاث التي تناولت الحكاية الشعبية الأمازيغية بالمغرب إبداعا ودراسة ونقدا، وقد قام بها دارسون مغاربة، ويمكن الإشارة إلى كتاب: ؤميي ن حمو ؤنامير، لعبد العزيز بوراس 1991، ودراسة معنونة ب: قراءة في الحكاية الشعبية الأمازيغية الأطلسية: حكاية القنفذ والذئب نموذجا، لعبد الرحمن باحوس 1997، وكتاب الحيوان في الأمثال والحكايات الأمازيغية لرشيد الحسين 2000، والحكاية الشعبية: قراءة في نص تزمرتتالي الأمازيغي لعبد الرحمان بلعياشي، وكتاب: "تتيحيجا، وهو كتاب حول الحكايات الأمازيغية من تأليف محمد الراضي، ومن

إصدارات المعهد الملكي للثقافة الامازيغية سنة 2009، ويشتمل الكتاب على تسع حكايات من بلدة تازوطا بإقليم صفرو (13).

إضافة إلى ما ذكرناه من أعمال شملت الحكاية الأمازيغية، هناك مشاريع أخرى لتدوين المادة الشعبية وتوثيقها، سواء من قبل طلبة بالكليات، أو فعاليات من المجتمع المدني. ومن بين هذه البحوث نذكر أطروحة لنيل الدكتوراه للأستاذ عبد القادر بزازي، بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بوجدة، سنة 1993، تضم حكايات من منطقة بني يزناسن (مدينة بركان)، بعنوان: " Etude d'un Corpus de Contes Oraux au Maroc Oriental, Lexique, Configurations Et Enonciation"، تضم حكايات أمازيغية ريفية (مدينة الناظور)، تحمل عنوان: " بلاغة الحكي في القصص الشعبي: تدوين متن وتحليل نصي- مقامي"، لنيل الدكتوراه الوطنية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، 2007.

بالإضافة إلى عمل نشر للأستاذ محمد الأيوبي، بأتريخت، هولندا، سنة 2000، يضم الحكايات الأمازيغية الريفية (مدينة الحسيمة)،وهو مدون باللغة الفرنسية واللغة الأمازيغية، يحمل عنوان: "Les Merveilles du Rif : Contes berbères". وهناك عمل آخر يضم الحكايات الأمازيغية الريفية (مدينة الحسيمة)، مدون بالإسبانية لزبيدة بوغابة معلم، نشر ببرشلونة، سنة 2002 يحمل عنوان: "Cuentos Populares del Rif Contados por Mujeres Cuentacuentos ". دون أن ننسى كتابا في الحكايات والأحاجي تحت عنوان "ثيحوجا نالريف/ الحكايات الريفية، لعائشة بوسنينة، وذلك في بداية الألفية الثالثة.

ثالثا: ترجمة الحكاية الأمازيغية: بفضل الترجمة نُقِلت الحكاية الأمازيغية إلى عدة لغات، فلقد ثبت أن الملك يوبا الثاني ترجم الحكايات الأمازيغية التي كانت تتداول في عهده إلى اللغة اليونانية وكانت آنئذ من بين اللغات التي كان يتقنها، كما أن أبوليوس المادوري صاحب كتاب (المرافعات) و(الجحش الذهبي) أدخل في كتابه الثاني كثيرا من الحكايات الأمازيغية ومن بينها حكاية طويلة من النوع الغرائبي، هي حكاية "بسيشي" حيث الاتصال والتزاوج بين الكائنات السماوية والأرضية وذلك عندما يتوله إله الحب بفتاة من بني البشر تدعى "بسيشي" الفائقة الجمال، إلا أن هذا الحب سيولد كثيرا من المعاناة لكليهما، إن الحمار الذهبي الذي وضعه أبوليوس ما هو إلا سلسلة

من من الحكايات المتداخلة فيما بينها، وقد وضعه صاحبه باللغة اللاتينية وكان له تأثير على الآداب العالمية إذ تُرْجِم إلى عدة لغات حديثة، ومن النقاد من يعتبره أول رواية عالمية (14).

الترجمة العفوية والشعبية التي يجهل من قام بها، والظروف التي لابستها، هذا النوع من الترجمة هو الذي مكن الحكاية الأمازيغية من أن تتفاعل مع الآداب الأخرى المجاورة لها فتأخذ منها وتعطي، إلا أن انشغال الأمازيغ باللغات الأخرى فيما بعد، وعنايتهم بها واستهانتهم بآداب لغتهم وعدم تحمسهم لإدخالها لمجال الكتابة أثر سلبا على تطور الحكاية الأمازيغية، فقد أتت مرحلة أصبح يؤخذ فيها من الحكاية الأمازيغية فقط، وكأنها تركة مشاعة تستنزفها الثقافات الأخرى في حين حرمت هي من أي مدد يذكر (15).

بالإضافة إلى أنه بعد الاستقلال، ولأسباب إيديولوجية معينة، اعتبرت كل الدراسات التي تمس الشأن الأمازيغي والتي أنجزت في الفترة الاستعمارية إرثا استعماريا غير مرغوب فيه، أدركنا الصعوبة التي يلاقيها الباحث في هذا المجال، من حسن الحظ أن بعض الباحثين من أبناء الأمازيغ وضعوا بيبلوغرافيا وافية لهذه الأعمال مثل ما قام به الباحث الجزائري (عمارة بوكشيش) عندا وضع Langues et littératures berbères des origines à nos jours bibliographie internationale: ، وهو مؤلف تمت الإشارة إلى كل الأعمال التي قام بها الباحثون حول الأدب واللغة الأمازيغيتين، ومن ضمن ذلك الحكاية (16).

رابعا: صون التراث الشعبي :إن حماية التراث تكمن في جمعه، وحفظه تفاديا لاندثاره، وتختلف الآراء حول الطباعة بكونها تجمد الرواية دون أن تمنعها من التداول، كما أن حلول وسائل الاتصال مكان الراوي تصنع نصا جديدا بصياغة جديدة، يقول محمد الجوهري في هذا الصدد: "الطباعة تجمد الرواية ولكنها لا تمنعها من التداول على ألسنة الرواة، ولكن إذا اقترن التجميد بالطباعة باختفاء الراوي، وحلول الراديو أو الفيلم مكانه، فإننا نكون قد بدأنا نسير في طريق تراث جديد، فيه شيء من القديم، ولكنه فردي الإنتاج والصياغة، جماهيري الانتشار، مركزي التوجيه عرضة لكل استغلال إيديولوجي" (17).

عندما تصبح المأثورات الشعبية بين يدي وسائل الاتصال فإنها تخضعها لموحياتها بعد أن تسوقها في صيغ حديثة لا تميز بين جمهورها، يقول حسن الخولي في هذا الصدد:

"لا يوجد تراث شفاهي خالص لم يتأثر بأي قدر لمؤثرات ومتغيرات أخرى، من طبيعة غير شفاهية. تطورت تقنيات العمل الميداني لجمع المأثورات الشعبية الشفاهية. ووسائل الاتصال تخضع هذه الأخيرة لموحياتها، بعد أن تسوقها في صيغ حديثة، مبنية على قواعد الفنون الحديثة المثقفة. وهي عندما تستخدم عناصر التراث الشعبي، فإنها تلحق مساسا بتلك الخصوصية حيث لا تبقى عناصر التراث المستخدمة في هذه الحالة ملكا فقط لطبقة أو فئة معينة، وإنما تصبح تراثا لجمهور أعرض من الناس" (18).

نختم بالقول أن الكتابة تساهم في الحفاظ على الحكاية، ولنتمكن من نقل الحكايات التي وصلت إلينا عبر السرد الشفوي من الواجب على كل مواطن غيور على تراثه، ويخشى عليه من الضياع أن يدونه لتتمكن الأجيال الصاعدة من قراءته والاستمتاع به، ونقله إلى وارثيها، فمسار العولمة يقتضي منا بناء خصوصية منفتحة وفاعلة، خصوصية تتمتع بديناميكية ذاتية تعيد قراءة التراث وصوغ الثقافة الشعبية.

الهوامش:

1-مصطفى الشادلي، الحكاية الشعبية في حوض البحر الأبيض المتوسط، الحكاية الشفاهية: إواليات تمهيدية ومنهجية في تناول ومعالجة المتون الإتنوغرافية، زاوية للفن والثقافة، الرباط، 2009، ص .54

2-محمد أقضاض، الأدب الأمازيغي بين الشفاهي والكتابي،

In : La Littérature amazighe, oralité et écriture, spécificités et perspectives, actes du colloque international, Institut Royal de la Culture Amazighe, Rabat, 2004, p 81.

3. Simon Balttestini, de l'inscription du sens et de l'écrit à l'oralité en Afrique, le phénomène graphique africain, l'Harmattam, Paris, 2006, p 17.

4. Ibidem, p 17.

5. والتر أنج، الشفاهية والكتابة، ترجمة حسن البنا عز الدين، مراجعة محمد عصفور، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، 1994، ص 158.

6. محمد شفيق، لمحة عن ثلاثة وثلاثين من تاريخ الأمازيغ، انفوبرانت، فاس، الطبعة الرابعة 2003، ص 68.

7. محمد أقضاض، الأدب الأمازيغي بين الشفاهي والكتابي، مرجع مذكور، ص 84.

8. جميل حمداوي ، خصائص الحكاية الشعبية الأمازيغية بمنطقة الريف، رسالة الأمة العدد 8820، ص 6.

9. نفس المرجع السابق، ص 6.

10. نفس المرجع السابق، ص 6.

11. نفس المرجع السابق، ص 6.

12.نفس المرجع السابق، ص 6.

13.نفس المرجع السابق، ص6.

14. محمد أكوناض، الحكاية الأمازيغية بين الترجمة والتدوين، المتخيل في التراث الثقافي اللامادي بالمغرب. أعمال الجامعة الشتوية الدورة الثانية، 5-6 و7 فبراير 2012، 2012، بدار الثقافة بتزنيت، ص 43.

15. نفس المرجع السابق، ص44.

16. نفس المرجع السابق، ص .45

17. محمد الجوهري، المأثورات الشعبية بين الشفاهية والتدوين، الحكي الشعبي بين التراث المنطوق والأدب المكتوب، أعمال المؤتمر الدولي لقسم اللغة الفرنسية وآدابها، 27-30 مارس 2009، كلية الآداب، جامعة القاهرة،دار العين للنشر،2009، ص 24.

18. حسن الخولي، الإعلام والتراث الشعبي، ص ص 309-331، في علم الاجتماع ودراسة الإعلام والاتصال، تحرير محمد الجوهري، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 1992.

رواية جديدة للروائية الأردنية سميحة خريس